من أوراق الرئيس(5):

الجليد .. يذوب: بين موسكو والقاهرة.

فى الصباح قالوا: نعم

وفى المساء قالوا: لا ندافع عن مصر

مازالت العلاقات مع السوفيت متطرفة. أى إنها تبدأ من طرف لتندفع إلى الطرف لتندفع إلى الطرف الآخر. بشدة وحدة. ولا يملك الإنسان أمامها إلا أن يظل فى حالة ذهول لا يعرف له رأساً من رجلين. ما هو المعنى؟ ما هو الهدف؟ يصعب على الإنسان أن يعرف ذلك. ولكن أحاول أن أوضح ذلك لنفسى وللتاريخ. ويكفى أن يتأمل الإنسان ماذا جرى لجمال عبد الناصر. وكان فى قمة الأسى والحزن بعد النكسة. وكيف أن السوفيت أعطوه السلاح عن الطريق الكوبرى الجوى والبحرى.. وكيف أنهار. أو كاد ينتابه بالفعل وهو يتحدث إلى تيتو. وكان ذلك يوماً مشهوداً.. لم أر جمال عبد الناصر فى حالة أسوأ من ذلك.. وكان مرض السكر قد هد حيله.. فقد انفلت السكر فى جسمه ولم يعد فى استطاعته أن يتحكم فيه.. أى أن جمال عبد الناصر لم يكن فى حاجة إلى مزيد من المرض أو التعاسة الشخصية أو القومية. وإذا كان السوفيت جادين حقاً فى مساعدته وإيقافه على قدميه فأمامهم مالا نهاية له من الفرص. فى استطاعتهم أن يفعلوا كل شئ إذا أرادوا. فهى مشكلة إرادة وليست مشكلة قدرة.

وبعد النكسة مباشرة أصبحت سماء مصر مكشوفة. أو عارية. لا يوجد غطاء جوى لمصر.. ومعنى ذلك أن فى استطاعه الطيران الإسرائيلى أن يفعل ما يشاء كيف يشاء ومتى يشاء. وقد حدث ذلك كثيراً. وبصورة مروعة. وسماء مصر كانت مكشوفة منذ 1964. فالسوفيت أعطونا صواريخ سام 1 وسام 2. وهى صواريخ لحماية مصر إذا أغارت عليها طائرات عالية. أما إذا جاءنا الطيران الإسرائيلى منخفضاً، فلا يمكن مواجهة ذلك.. فالسماء مسدودة من فوق مفتوحة من تحت. وهو وضع عجيب وغريب ومحزن. وليس من المعقول –طبعاً– أن يجئ الطيران الإسرائيلى مرتفعاً لكى يكون

هدفاً لنا. أو لكى يعطينا فرصة اصطياده وإسقاطه، لأن صواريخنا لا تستطيع إلا الضرب العالى!.

ولو عرف الشاعر الذى قال عن مصر إنها "مفتوحة كالسماء" معنى هذا التعبير الذى يراه مدحاً لمصر وصفاء مصر وبساطة أهل مصر، ورحابة قلوب المصريين، لعدل عن هذا التعبير الرهيب. وفى استطاعتك أن تتحدث فى ذلك مع رجل من قواتنا المقاتلة وتقول له: هل تحب أن تكون فوق رأسك مفتوحة؟ إن الجواب على ذلك سيكون عالياً.. لأن السماء المفتوحة هى التى تخلو من وسائل الدفاع عنها.. ووسائل الدفاع عنها هى الصواريخ والطائرات والمدافع .. وكانت سماؤنا مفتوحة لليهود..صواريخ لا تضرب إلا الطائرات العالية، واليهود يستخدمون الطيران المنخفض هرباً من هذه الصواريخ.

وحتى لا تكون سماؤنا مفتوحة أيضاً لابد من الطائرات المقاتلة. لأنك لا تستطيع أن تغطى بالصواريخ مصر كلها.... من الإسكندرية إلى أسوان . وحتى إذا استطعت ان تغطى سماء المدن الكبرى فسوف توجد هناك فجوات منها الطائرات المعادية. فإذا دخلت الطائرات المعادية هذه الفجوات خرجت لها طائراتنا المقاتلة، أو انطلقت المدافع التى تستخدم الرادار..

وقد عرف اليهود مواصفات صواريخنا سام 1 و 2 وأصبح من المؤكد لديهم ولدينا أيضاً أنهم إذا دخلوا مصر فى ذلك الوقت. ومعنى هذا أننا أمام هذه السماوات المفتوحة عاجزون عن فعل شيء..

ولم يكن غريباً فى ذلك الوقت أن يعلن أحيهود أن الجيش المصري قد أصبح في آخر القائمة التي تبدأ حسب القوة والاهمية : بالجيش الاردني ثم الجيش السورى وأخيراً الجيش المصرى- منتهى الهوان والإهانة لنا حكومة وشعباً وجيشاً.. أقسى ذلك على نفوسنا فى أى وقت!.

ومن المؤكد أن الأمريكان قد عرفوا هذه الصواريخ السوفيتية فى فيتنام وعرفوا عيوبها، وعرفوا كيف يمكن الافلات منها والتغلب عليها.. وهذه الدروس المستفادة من شرق الأقصى قد لقنوها لليهود فى الشرق الأوسط. وكانت من نتيجتة هو كل ما أصاب مصر بعد ذلك..

وكان من الطبيعى جداً أن يطلب جمال عبد الناصر من حورنى وزخاروف فى اجتماع القبة أن يقوم السوفيت بإنقاذ الموقف أى بسد السماء المفتوحة، أو تغطية مصر التى تعرت سماؤها. وطلب بصراحة: لماذا لا يتولى الاتحاد السوفيتى الدفاع الجوى عن مصر!.

وكان جمال عبد الناصر يحاول بهذا الطلب أن يتفادى مشكلة الفترة المطلوبة للتدريب على الأسلحة السوفيتية والروس عندهم (لازمة) إذا طلبنا منهم سلاحاً يقولون لك: .. حاضر.. بعد شهر .. بعد شهرين..

وبعد ذلك يجئ السلاح على فترات وبكميات صغيرة يقولون لك: أنتم فى حاجة إلى فترة تدريب.. سنة أو سنتين فإذا قلت لهم: إننا قد تدربنا جيداً.. وأنا هذه الفترة طويلة فى استطاعتنا أن نستوعب السلاح فى فترة أقصر.. حدث ذلك ونحن مطمئنون إلى النتيجة. فهذه بلادنا وهذه حياتنا وهذا شعبنا، ولا يمكن أن نفرط فيه .. ونحن حريصون على كل شيء أكثر منكم..

يكون الرد التقليدى: ليس بعد.. أنتم تتعجلون كل شيء لابد أن يكون هناك وقت .. لا تتسرعوا..

وتقول لهم: لا يمكن أن تتعجل ذلك.. لأننا نعرف النتيجة .. ونحن لا نريد ما حدث فى 67 أن يتكرر مرة أخرى.. فنكسة واحدة فى العمر كله تكفى ليتعلم منها شعب عريق مثلنا.

ويجئ الرد من كل واحد وعلى أى مستوى وفى أى موقع وفى أى مكان تلتــق بهم فى مصر أو فى موسكو: اتفقنا!.. ثم يكون لهذا الاتفاق معنى أخر غير الذى خطر على بالك..

والذى يحدث عادة أنهم إذا قالوا اتفقنا أن تشعر أنت بالسعادة المطلقــة. فــنحن أناس عاطفيون. وبعد ذلك يجئ الرد هذا : اتفقنا على أن نختلف معك فى الــرأى.. أو اتفقنا على ألا نتفق معك.

ويكون هذا الرد والرد السابق عليه مثل واحد يا خدك من تحت الغطاء الــدافئ ويلقى بك فى الماء البارد.. أو ينقلك من الثلاجة ويرميك فى إناء يغلى..

هذه هى الدوخة فى علاقتنا بالسوفيت، سواء ما حدث لجمال عبد الناصر أو ما حدث لى بعد ذلك. وما يمكن أن يحدث مرة أخرى لمصــر أو لغيرهــا مــن الــدول الأخرى..

ولذلك كانت فرحة جمال عبد الناصر لا يمكن أن توصف يوم أعلن بودجورونى وزخاروف الموافقة على أن يتولى السوفيت الدفاع الجوى عن مصر.. لا أســتطيع أن أصف سعادة جمال عبد الناصر وسعادتى. لقد وافق الروس على تغطية مصر.. وســد الفجوات فى سمائها.. وبذلك لن يفزع جندى إذا سمع فى الراديو الأغنية جندى إذا سمع فى الراديو الأغنية التى تقول : مفتوحة كالسماء.. لا يهم بعد ذلك أن تتردد هذه الأغنية ألف مرة فى اليوم الواحد. فالروس سوف يغطون هذه السماء.. فلا تكون مفتوحــة إلا للشعراء والمطربين.. أما بالنسبة للعسكريين فسوف تكون مسدودة بأحكام.. ولن تنفــذ منها طائرة يهودية .. فالروس سوف يأتون بالصواريخ الأخرى التى تضرب الطائرات المعادية إذا جاء منخفضة..

وأنا أعترف بعجزى عن وصف درجة سعادة جمال عبد الناصر فى ذلك اليوم، تماماً كما عجزت عن وصف تعاسته يوم وصف للرئيس تيتو مدى الهوان الذى لحقــه من معاملة الروس له.. يوم حاول تيتو أن يهدئ جمال عبد الناصر، وأن يطالبه بمزيــد

من الصبر والاحتمال، فتيتو أيضاً قد ذاق المر فى علاقته بالسوفيت، وهو أكثر النـــاس معرفة بهم...

ويوم سافر تيتو عائداً إلى بلاده.. لا أنسى ذلك اليوم الموسيقى تعزف والرجـــل وجهه مشرق. وآمالنا معلقة بصدقه وقدرته على إقناع السوفيت بأن يتحركوا من أجـــل أن نقف على أرجلنا. وإنفاذ هذا الرجل جمال عبد الناصر الذى وصـــل إلـــى أقصـــى درجات التعاسة واليأس .. لقد أحسست يومها أن قلبى يكاد ينخلع وتيتو يغادر الشواطئ المصرية. فهذا الرجل فى القلب حقاً. وفى كل مرة التقى به أؤكد له هذا المعنى، مع أنه ليس فى حاجة إلى ذلك. ولكن هذا هو شعورى.. وفى كل مرة أعانق تيتو أقول له هذا الشعور: إننى لا أنسى يوم عاونتنا وقلوبنا معلقة بك.

إن تيتو رجل عظيم بكل المقاييس الوطنية والعسكرية والسياسية..

إذن لقد كانت سعادة جمال عبد الناصر أعظم وأروع من أن توصـــف . وقلنـــا يومها لابد أن السوفيت جادون فى المساعدة الحقة وفى إنفاذنا والوقوف معنا ووراءنـــا إلى نهاية المدى. لأنه لا يمكن أن يعلن بودجورنى هذه الموافقة الواضحة دون تفويض من القيادة السوفيتية. لأن أحد فى روسيا لا يستطيع أن ينفرد برأى. وإنما هو متحـــدث باسم القيادة. ولا ينطق عن الهوى . وإنما هم فى موسكو يقولون وهم هنـــا يـــرددون. وهذه قاعدة.

وبعد اللقاء مع بودجورنى وزخاروف عاد جمال عبد الناصر إلى بيته فى منشية البكرى، ورجعت إلى بيتى فى الهرم.

وفى الليل دق جرس التليفون وكان المتكلم جمال عبد الناصر قلت له:

- خيراً..
- لا خير . وإنما شر وشر..
- ماذا جرى يا جمال؟

- الجماعة غيروا رأيهم..
- كيف؟
- اتصل بى بودجورنى وقال لى لابد أن أقابلك فوراً . وجاء. وقال إنـــه اتصـــل بموسكو بشأن الدفاع الجوى عن مصر وطلب مصر أن يكون قائد الدفاع الجوى سوفيتيا، فرفضوا .. وأنا أسف لذلك..
- وسألته : هذا رأيهم النهائى؟ فأجاب: نعم .. والله لقد حاولت كثيراً..
- ...
- ...

وللحق أقول إن كلمة (والله) هذه من عندى أنا!.

فما الذى يمكن أن يقال عن حالنا بعد هذا الموقف: إنهم فى الصباح قالوا: تتولى الدفاع عنكم.. وفى المساء لا نستطيع الدفاع عنكم.

وليس من المعقول أن يتطوع رجل بوزن بودجورنى فيقول: نعم .. ثم يقولـــون له: قل لهم لا.. فيقول لنا: لا.. ولكن المعقول أن هذه هى سياستهم العامة معناً!.

وهذه (الرجة) أو (الصدمة) التى يصاب بها الإنسان من هذا الأسلوب المتطرف من الممكن أن يصيبه بالسكتة فيقع ميتاً.. وقد يؤدى ذلك إلى حل.. أو إلى اتخاذ موقف جديد..

ولكن الذى أصيب بالسكتة فى ذلك الوقت هم الروس أنفســـهم.. ففـــى شـــهور الصيف فى يوليو وأغسطس يتركون موسكو ويذهبون إلى شواطئ القرم علـــى البحـــر الأسود. والانتقال إلى القرم فى قاموسهم، معناه الانتقال إلى العالم الآخر.. فلا أحد يرد عليك ولا أحد يسأل عنك .. فكنا نتصل بهم ونصرخ ويكون الـــرد: إن الزعمـــاء فـــى القرم.. ثم من هو الذى يرد عليك؟ إنهم سكرتيرو الزعماء أو مديرو المكاتب. فماداموا قد ذهبوا إلى القرم، فلا شيء يمكن أن يحدث، أو لا شيء يمكن استعجاله مهمـــا كـــان

هاماً أو خطيراً وعليك أن تعتمد على مدخراتك من الصبر، وإن استطعت أن تفترض الصبر من أحد فافعل. إنهم فى القرم..

ولكننا لم نفقد روح القتال، ولا روح الثأر ولا الحرص الشديد على استرداد كرامتنا .. تلك أيام عصيبة على النفس. على مصر وعلى الأمة العربية. هذه حقيقة. ربما خفتت ألواناً قليلاً وجفت دماؤها ودموعها. ولكنها فى القلب فى أعماقه الموجعة.

كانوا هناك فى القرم، وكنا نحن هنا فى مصر نعانى حرارة حقيقية : حرارة الصيف والغيظ معاً..

ويكفى أن يتذكر الإنسان وهو يستعرض تلك الأيام الأليمة ما حدث.. فى رأس العش فى 6 و 7 يوليو 1967، أى فى نفس عام النكسة وبعدها بشهر واحد، قام طيراننا بما تبقى لديه من طائرات الميج 17 وأغار على الضفة الشرقية وعاد سالماً. ولكن هذه الغارة التى لم يتقبلها الناس فى ذلك الوقت على أنها حدث عظيم، وأن لها فعل السحر عند العسكريين..

أما الناس –المدنيون– فلم يشعروا بها.. فهم معذورون فاليأس قد أغرقهم فى المرارة، والمرارة قد أسلمتهم للتشاؤم فلم يعد أحد يصدق ما يرى أو ما يسمع. إنهم معذورون فالذى أصاب مصر لم يكن شيئاً هيناً ، ولسنوات طويلة وفى ذلك الوقت حاول اليهود دخول بورسعيد اكتساحاً لرأس العش .. وواجههم اللواء أحمد إسماعيل الله يرحمه. وضرب ودفع دباباته. وأوقفهم..

كان اليهود قد أتوا بكاميرات تليفزيونية معهم.. لتصوير هذا المشهد .. إلى هذه الدرجة هان أمرنا على اليهود فكل اشتباك معناً هو شيء بسيط. ويمكن الدخول والخروج فلا أحد أمامهم. ويوم تقدمت قوتنا صرخواً وقالوا التليفزيون الذى أمامكم أمريكانى .. فإياكم أن تمسوه غرور اليهود وغطرستهم، واستخفافهم بنا – هذا الذى في القلب حقاً.

وفى نفس الوقت تجيء إلينا أخبار من كل اتجاه وكالات الأنباء ومن الأمم المتحدة ومن الإذاعات العالمية الأخبار كلها ذات معنى واحد، رغم أنها من مصادر مختلفة إذن هو خبر صحيح: أن قوات يهودية سوف تهجم علينا الذى يمكننا أن نفعله أمام حرب الأعصاب هذه.. أمام المؤامرة العالمية علينا.. ونحن، كما هو معروف، قد اصبح حالنا بهذا السوء.. والقيادة المصرية عند قاع اليأس من الصديق، وعند قاع المهانة من العدو..

والأخبار تجئ من روسيا ومن أمريكا أن اليهود يتحركون بلواء مدرع فى اتجاه القنطرة شرق. فالقنطرة شرق أستولى عليها اليهود بقوات خاصة. وليست بها قوات مدرعة كافية.. وتتوالى الأخبار بأن اللواء المدرع يتجه من العين السخنة على الشريط الساحلى جنوباً. وأنه شوهدت معدات العدو و مثل هذا التحرك الكبير يمكن معرفته.. وفى استطاعتنا أن نعرفه أو نجمع معلومات عنه قبل اقترابه والاستعداد لمواجهته. والأخبار تنهال علينا من كل اتجاه هل هو . تهديد؟ هل تخويف؟ هل هو لعب بالأعصاب؟ هل هو استخفاف بنا؟ .. هل هى حلقة من سلسلة المحاولات المستمرة لهز أعصاب مصر أو كهربة الجو العام لإسقاط ما تبقي من مصر؟.

وتأكدت هذه المعلومات كلها عند القائد العام محمد فوزى . واتصل محمد فوزى بالقائد الأعلى جمال عبد الناصر وأخبره أن هناك قوة يهودية، وأن هذه القوة سوف تعبر وفي انتظار الأوامر.

وفى مثل هذه الحالات يجب ألا نترك هذه القوة تتحرك و تتقدم دون إرهاق لها.. وهذه بديهيات فى الفقه العسكري ووافق جمال عبد الناصر على وجه نظر محمد فوزى وذلك فى يوليو 1967. فأصدر القائد العام أمرا للقوات ً بالتصدى لهذه القوات الزاحفة.

ولكن بعد ثلاث ساعات اتصل محمد فوزى بجمال عبد الناصر يخبره بأن الطائرات فى الجو ولا تستطيع أن تفعل شيئاً فالضباب كثيف على هذه المنطقة. ضباب فى يوليو حدث كثيراً.

وأذكر أننى بعد ذلك عندما تحدثت عن (الضباب) تصورت مراكز القوى فى مصر أن هذا تعبير مجازى تعبير رمزى. أى أننى فى مثل هذه المواقف الحاسمة فى تاريخ امتنا ، تحولت فجأة إلى شاعر أو إلى رسام سريالي هل الموقف يحتمل مثل هذا اللعب بآمال الشعوب وارادتها ولم يكن الضباب الذى تحدثت عنه إلا ضباباً خفيفاً يغطي أرض هذه المنطقة فى الصيف..

وتوهم بعض الناس أنه كالضباب الذى حدث فى الحرب العالمية الثانية، عندما تنبأت الأرصاد الجوية الألمانية بأن المانش سوف يغطيه الضباب فتمكنت بعض القطع الحربية الألمانية من الهرب من الرقابة الإنجليزية وأفلتت إلى المحيط الأطلسى ومرت بجبل طارق واتجهت إلى الأسطول الفرنسي فى مارسيليا .. أى أن هناك توافقاً بين الضباب وبين الهروب تحت ستارة .

ولم يكن شيئاً من ذلك، كما توهمت بؤر مراكز القوى فلاسفة الهزيمة فى مصر. إنه ضباب حقيقى: بخار الماء عالقاً فى الهواء كستائر كثيفة حجبت الرؤية عن الطيارين فلم يفعلوا شيئاً، رغم صدق النية وروح التضحية.

الغي جمال عبد الناصر القرار الخاص باستخدام الطيران لضرب القوات المدرعة الإسرائيلية التى وصلت وتمركزت ولم يكن فى استطاعة الطيارين أن ينخفضوا خوفاً من الصواريخ .. وحتى لو فعلوا فلم يكن أحد يستطيع أن يرى أبعد من نفسه، وجاء هذا الحادث عبئا علي الشعور العام الذي لم يكن ينقصة شيء ليزداد سوءا.فالأعصاب مرهقة . والنفوس مسدودة والسماء ما تزال مفتوحة . وكل شيء ضباب أكثف من الذي غطي القناة في ذلك اليوم . وأكثر الناس قدرة علي الرؤية لا

يستطيع أن يري أبعد من نفسه و لكن الذين يتفلسفون فى مصر كثيرون. ولذلك كثــرت الوساوس والاوهام والمخاوف. والخلاصة أن الناس قد تعبوا والسبب هو :

فشل القيادة المصرية فى ذلك الوقت. ومن مظاهر الفشل سوء تقدير الموقف. فقد أقتنع القادة بأن السلاح الروسى هو الذى فشل ... أو هو الذى كان سبب الفشل، وليس هــذا صحيحا فلا عيب فى السلاح، ولكن العيب فى الرؤوس التى استخدمت هذا الســلاح... فالسلاح الروسى لم ينهزم، وإنما الذين يمسكون بالسلاح هم الــذين أنهزمــوا .. مــن طبيعة المهزوم أن يتبرأ من فشله. وأن يلقى بالهزيمة على الآخــرين. ويخــرج مــن الموقف بأنه هى المجنى عليه.. ومعنى ذلك أننا لم ننهزم. وإنما الذين هزمونا. أما مــن (هم) .. الذين هزمونا؟ لابد أن الجواب: هو الروس السلاح الروسى!.

وهذا ضد الواقع، وللتاريخ أقول إنها القيادة المصرية الفاشلة التى لــم تحســن استخدام السلاح ولم تحسن الإعداد والاستعداد ولا تقدير الموقف ولا إدارة الأحداث بعد ذلك.. المثل الذى يقول: إن الهزيمة طفل يتيم، وأن النصر له الف اب مثــل صــحيح فهذه الهزيمة طفل ليس له أب ولا أم ولا يريد أحد أن يتبناه. فهل من المعقول أن يكون هناك طفل بلا أب ولا أم: والجواب: نعم إنه الهزيمة.. أما النصر فله اب وأم وأقــارب للأقارب.. إنه أبن من أكبر عائلات التاريخ .. أليس نصراً؟ ألــيس عظمــة وكبريــاء وكرامة وعملاً باهراً؟ وقد رأينا ذلك بعد انتصارات اكتوبر. . وذقنا مرارة اليتم ونحن ننظر إلى الطفل المنبوذ المشوه الذى يبتعد عنه الناس خوفاً من العــدوى: الهزيمــة!. وكان يوجد ايبف السفير السوفيتى فى ذلك الوقت حزيناً بسبب ما تنشرة الصحف فــى مصر. وبسبب الشوك والطين الذي يرمون به السلاح السوفيتى. ولم يتســع وقتــى ولا صدرى في ذلك الوقت لأقول له هذا الذى أسجله الآن. وإنما كنت أكتفى بأن أقول لــه: إنها الهزيمة. وقد جريتم ذلك فى حروب كثيرة. وقرأنا فى التاريخ: الويــل للمهــزوم.. والويل من المهزوم أيضاً.. فالمهزوم يعلن الآخرين دائماً:

وكان هذا السفير يتردد على بيتى كثيراً وبانتظام. ولا يكــف عــن الشــكوى.. وأحاول أن أجد ما أقوله. ولكن الذى أقوله كان يشبه إلقاء قطعة سكر صغيرة فى بحــر

مالح. فلا أنا قادر على أن أغير طعم الماء فى فم الرجل. ولا هو مقتنع بما أفعـل. ولا أنا توقفت عن (تحلية) الماء والمالح فى فمه، ولا هو سكت عن الشكوى..

وفجأة أرسل الاتحاد السوفيتى إلى القاهرة يا كوب ماليـك، وهـو مـن أقـدر الدبلوماسيين السوفيت.. وكان من حين إلى حين يلتقى جمال عبد الناصـر. ولابـد أن السوفيت قد أرسلوا هذا الرجل ليرقب الوضع كله عن قرب.. وليكون إلى جوار جمـال عبد الناصر يواسيه ويخفف عنه. ويبصره بالأمور الدولية وموقف السوفيت. ولينـاقش معه احتياجات مصر إلى السلاح. لابد أن يكون هذا هو السبب فى إيفاد رجل بهذا القدر العظيم عندهم. فالسفير السوفيتى وحدة لا يكفى لمعالجة القدر العظيم عندهم. فالسـفير السوفيتى وحده لا يكفى لمعالجة الموقف، أو حتى ليكون محطة انـذار مبكـر لنـا. أو علينا. فياكوب مالك كان مندوبهم فى الأمم المتحدة، وقد تمرس فى السياسـة الدوليـة ورصد الأحداث قبل وبعد وقوعها..

ولم يطل انتظاره فقد بدأ ينشط. وكان أول نشاط له أن طلب مقابلة جمال عبـد الناصر لأمر هام. والتقى به جمال عبد الناصر. فقال له ياكوب ماليك: جئتك بنبأ هـام. هل أنت على استعداد لسماعه.

قال له جمال عبد الناصر: أعصابى ما تزال قوية. وأستطيع أن أسمع منـك أى شيء.

قال له : هناك مؤامرة!.

- مؤامرة على من؟
- عليك يوم السبت القادم .. أى بعد يومين . فهل أنت جاهز؟!.
- لا تخف من هذه المؤامرة أو من هذا الانقلاب.. فنحن نرصد كل شـيء .. وقد ظننت أنك جئت لشيء أخطر من ذلك.

- هل هناك ما هو أخطر من انقلاب عليك يطيح بك.. ويعاقبك على هذه الهزيمة.. ويكون العقاب من شعبك!.
- نعم هناك ما هو أخطر من ذلك وهو أن تبعثوا لنا بسلاح نواجه به العدو.. ونعيد للناس كرامتهم.. فإذا حدث ذلك فلا خوف من انقلاب .. فالناس يتعجلون النصر.. ويريدون القتال وروحهم المعنوية لم يزهقها اليأس بعد..

والحقيقة كان الضباب يلف الناس جميعاً.. وكلهم يتخبطون بعضهم فى بعض. وكانت النغمة السائدة فى ذلك الوقت: السلاح السوفيتى هو الذى هزمنا.. السلاح السوفيتى الذى أنهزم أمام السلاح الأمريكى المتفوق.. إننا لم ننهزم وإنما هم الروس قد سقطوا أمام الأمريكان.. فليست معركة يونيو 67 إلا معركة لتجربة السلاح الأمريكى والروسى ومعرفة أيهما أقوى وليس المصريون واليهود وإلا فتران (المعامل).. وقد أجريت علينا التجربة بمنتهى القسوة. وأنهزت الميج أمام الفانتوم.

وأعاد جمال عبد الناصر على بأكوب ماليك كل ما فى نفسه .. فلا الروس أرسلوا سلاحاً .. ولا الروس بعثوا بصواريخ لمواجهة الطيران المنخفض.. ولا أدروكوا من صمودنا فى معركة رأس العش أو روحنا المعنوية ما تزال قوية .. ولا أدرك أيضاً أن استعدادنا لمواجهة اللواء المدرع الذى زحف على القنطرة شرق بدل على أن رغبتنا فى القتال ما تزال قوية وصادقة .. لا شيء من ذلك قد زحزح الروس عن موقفهم.. ولا حتى استجابوا لرغبتنا فى أن يتحرك أسطولهم الكبير فى البحر الأبيض نحو مدينة بورسعيد.. أو قطعة واحدة.. لعل وجودها هناك أن يخيف اليهود أو يردهم.. أو أن الوجود السوفيتى هذا يعطى معنى أو بعداً أعمق. لا شيء من ذلك قد زحزح الروس عن موقفهم.. ولا حتى استجابوا لرغبتنا فى أن يتحرك أسطولهم الكبير فى البحر الأبيض نحو مدينة بورسعيد.. أو قطعة واحدة .. لعل وجودها هناك أن يخيف اليهود أو يردهم .. أو أن الوجود السوفيتى هذا يعطى معنى أو بعداً أعمق. لا شيء من ذلك.. ولت إسرائيل فى غطرستها وأسرفت فى ذلك.. وظلت إسرائيل فى غطرستها وأسرفت فى ذلك . ورغم كل ما يقوله وما يفعله اليهود فإنهم لم يفلحوا فى أن يردوا

قواتنا إلى ما وراء رأس العش وظل هذا الموقع فى أيدينا منذ ذلك الوقت. ألا يدل هذا على شيء؟ لا يجد الروس فى ذلك أى معنى لصمودنا أو إصرارنا.

ومع أننا لم نطلب من الروس أن يدافعوا عنا بحراً، وإنما فقط أن تظهر قطعة عسكرية لهم عند بورسعيد. فقط مجرد ظهور، لم يفعلوا شيئاً من ذلك إلا فى سبتمبر.. جاءت قطعة. ووقفت . وجاء وقوفها عند بورسعيد بالضبط فى الوقت غير المناسب . فلم يعد لدينا أى أمل فى أن يفعلوا شيئاً، وحتى إذا فعلوا فلا قيمة ولا أهمية لا فعالية لذلك!

وكأن الله سبحانه وتعالى أراد أن يؤكد للروس وغيرهم أن رغبتنا فى القتل وفى الانتقام وفى استرداد الكرامة رغبة حقيقية صادقة. فحدث ذلك الشيء الجليل فى تاريخنا وفى تاريخ البحرية فى العالم كله. اقتربت المدمرة الإسرائيلية "إيلات" من بورسعيد فضربها زورق طوربيد مصرى صاروخاً فى قلبها والثانى أجهزة عليها وأغرقها تماماً.. وهنا يجب أن يتوقف التاريخ والمؤرخون طويلاً. وندع الكلام عنا للمحررين العسكريين الغربيين الأمريكان. حتى لا يكون كلامنا عن أنفسنا نوعاً من الغرور أو نوعاً من تعويض الهزيمة السابقة، بإغراق أنفسنا فى المديح..

فهذه أول مرة فى التاريخ البحرى.. أو فى تاريخ المعارك البحرية أن تطلق مصر صاروخاً بحرياً موجهاً فيكون له دوى عالمى.. أو أن هذه هى أول مرة ينطلق منها صاروخ بحرى موجه فى العالم كله.. عند كل الدول التى لها أساطيل بحرية.. والمعنى الثانى والهام جداً. وليس هذا كلامى وإنما هو كلام المؤرخين العسكريين الأجانب جميعاً، إن السفن الحربية الكبيرة لم تعد لها فاعلية أمام الزوارق الصغيرة حاملة الصواريخ. فقد كانت إيلات مدمرة ضخمة. وقد أضافوا إليها تعديلات فى إنجلترا حتى جعلوها ترسانة بحرية ومفخرة للبحرية اليهودية. فلما أصابها الصاروخ الأول شطرها نصفين. وجاء الثانى أغرقها. ولم تكن بعد ذلك فى حاجة إلى صاروخ ثالث..

وليس من قبيل التواضع أن أتوقف عن وصف وإحصاء ما حدث فى العالم كله. وإنما من باب الدقة وتسجيل التاريخ اترك الكلام للمؤرخين العسكريين وللمعاهد الاستراتيجية وحدها أن تقول وتصول وتجول. وخلاصة ما حدث بعد ذلك أن تغيرت الاستراتيجية البحرية العالمية واتجهت العيون إلى زوارق الطوربيد الصغيرة التى تحمل طاقماً من 17 فرداً القادرة على إغراق مدمرة بها 500 فرد ومليئة بالأسلحة والذخيرة وتكلفت عشرات الملايين من الجنيهات..

وبعدها بأربعة أيام أغار اليهود على السويس وضربوا مصانع تكرير البترول فى "الزيتية" .. أى أننا ضربنا لهم هدفاً عسكريا فأصابوا هدفاً مدنياً – منتهى السفالة والخسة. ولكن اليهود دائماً هكذا. معاركهم بلا شرف .. واشتعلت النار فى معامل التكرير طبعاً والتقطوا لها الصور وأذاعوا وأشاعوا فى العالم أن الانتقام كان صاروخاً ملتهباً.. وأن النار ظلت مشتعلة فى السويس شهوراً..

إلى آخر الأكاذيب التى يتقنها اليهود ويعيشون عليها ويصدقونها – مثل أكذوبة أن فلسطين وطنهم الذى ذكرته كتبهم المقدسة. مع أن كاتباً يهودياً كبيراً قد أصدر كتاباً منذ شهور يقول إن اليهود لاحق لهم فى فلسطين، وأنهم ليسوا ساميين أسيويين كما يدعون. المؤلف اليهودى الذى كان صهيونياً وشيوعياً أيضاً أسمه أرثر كيستلر. والكتاب أسمه (القبيلة الثالثة عشرة)... وغيرها من الأكاذيب التى تحتاج إلى دراسة ومتابعة. واعتقد أن من واجب المفكرين والمؤرخين أن يعنوا بذلك. فهذا أنفع لهم ولنا من موضوعات تافهة يرددونها دون أن يتوقفوا عندها لحظة ليتساءلوا : لمن يكتبون ذلك؟ وما هى الفائدة التى يجنيها القارئ من ذلك؟ أو ما هو الشيء الذى يضيفونه إلى الفكر الإيجابى المصرى أو العربى؟

وجاءت الغارات على الزيتية، كأية غارة حدثت فى أية حروب فى الشرق أو الغرب. ولم تستطع هذه الغارات أن تسمح من كتب التاريخ حادثة ايلات الفريدة فى البحرية العالمية.

ولكن هل حادثة المدمرة إيلات وانتصار البحرية المصرية بالسلاح السوفيتى قد غير شيئاً من موقف السوفيت. لم يتغير شيء. هل يصدق الروس أن أحد يصدقهم فـــى مصر؟ لقد كانت أزمة صدق وتصديق. لا هم يصـــدقوننا لا نحـــن نصـــدقهم. ومـــن الضرورى أن نتعامل معهم. وأن نبقى العلاقات أقوى .. وأن يبق الطريق مفتوحاً ذهاباً وإياباً بحراً وجواً. ولكن كيف؟.

فبعد خمسة شهور جاء شهر نوفمبر وفى اليوم الثانى والعشرين منه بالضبط قام عندنا أو خط دفاعى. ولابد أن أؤكد هنا أن ذلك قد حدث بعد مائة وخمسين يوماً. وكان السوفيت يؤكدون لنا أننا لن نستطيع استيعاب سلاحهم إلا فى ضعف هذه المدة.. وفـــى ذلك الوقت كنت رئيس لمجلس الأمة.. وكان جمال عبد الناصر يجب أن يفتتح الـــدورة الجديدة بخطبة. فالشعب ينتظر منه ذلك والأمة العربية السوفيت والعدو أيضاً.

وأخذت الحيرة جمال عبد الناصر وسارت به فى متاهات ما الذى يقوله للشعب؟ كيف يواجه الناس؟ هل يضعف؟ هل يجاهر بضيقة وقرفه؟ كيف يفعل ذلك وهو يعلم أن القوات المسلحة ماضية فى الاستعداد والدفاع ليلاً ونهاراً؟ هل يصارح النـــاس بحقيقـــة السوفيت؟ وإذا فعل فما الذى يجنيه من وراء ذلك؟ وما هو البديل لكل هذا؟

وقال لى جمال عبد الناصر يومها: أنا لا أستطيع أن أغير لهجتى. ولا أن أغير لسانى.. مال لم يكن لدى ما أقوله.. فلن أتكلم .. أذهب وفتش على الخط الدفاعى.. فإذا كان كل شيء قد أكتمل تماماً. هنا فقط أستطيع أن أتحدث إلى الشعب من مجلس الأمة.

وسافرت إلى القيادة، وقابلت أحمد إسماعيل قائد الخط في منطقة القناة. وســـألته بوضوح يوم 21 نوفمبر: هل أنت مستعد؟

قال : نعم مستعد.

وأعدت عليه السؤال مرة أخرى: هل أنت مستعد تماماً. إن الإجابة عن الســـؤال يتوقف عليها الكثير.. إن جمال عبد الناصر سوف يخطب يوم افتتاح مجلـــس الأمـــة..

ولابد أن يقول للناس، وكل كلمة تقولها أنت محسوبة عليه وعلينا إن ردك عسكرى ولكن كلامه هو سياسى فى الدرجة الأولى.

وأكد لى اللواء أحمد إسماعيل أن الخط الدفاعى قائم على أحسن وجه، أى أن قواتنا قد استوعبت السلاح السوفيتى تماماً وقام لنا أول خط دفاعى من بورسعيد للسويس وصدقت أحمد إسماعيل. وأنا أصدقه وأحبه. وأحمد إسماعيل دفعه جمال عبد الناصر. وكنا أصدقاء منذ أيامناً فى منقباً ورأيت (قرار) أحمد إسماعيل. فكان عند رأيه وعند صدقه.

ومما أعجبنى فى ذلك الوقت استعداد أحمد إسماعيل وتصميمه. والقادة الذين معه أيضاً. وقد رأيت اشكالا للاستعداد والترقب والاستطلاع. فرأيت قوات الصاعقة وقد تعلقت على الشجر. ترصد العدو وتصيده عند اللزوم وأراحنى ما رأيت وما سمعت. وعدت إلى القاهرة وقلت لجمال عبد الناصر: على بركة الله تستطيع أن تقول ما يرضيك افتتاح مجلس الأمة..

وفى مجلس الأمة أعلن جمال عبد الناصر عن رأيه فى المعركة. وأنه لن يقبل أية تنازلات مهما كانت النتيجة التي وصلنا إليها، أو التى يمكن أن تصل إليها..

وما كان يستطيع جمال عبد الناصر أن يقف بهذه الصلاة ويقول ما قال، لولا هذا الخط الدفاعى. فوراء هذا الخط علينا أن نجلس وأن نلم الضيوف. وأن ندرس ما كان يمكن أن يكون بعد ذلك. فالإرادة موجودة والتصميم جاء ولكن السوفيت لم يفعلوا شيئاً. فلا يزال الزعماء فى شأن جزيرة القرم على البحر الأسود. ولا يزال السكرتيرون الذين يردون علينا .. أو هم الذين لا يردون.

وعندما عاد الزعماء من الشواطئ أخذوا يردون ولكن طريقتهم فى الرد هى نوع من الاستمرار فى الصلاة عدم الرد.. ولا بد أن تكون وجهة نظرهم فى ذلك رؤوسنا (ساخنة).. ويجب أن يتركونا حتى تبرده حرارتنا. فإذا بردت ابتلعنا سكوتهم وإهمالهم لنا.

ولتفسير ذلك يجب أن نلقى نظرة بسيطة جداً إلى الذى يعمل فى طرق الحديد فهو وحده القادر على أن يشرع ذلك السلوك السوفيتى– ربما . فالحداد يضع الحديد فى ويدقه ساخناً حتى يلتوى فى يده.. ثم يضعه فى الماء فيتجمد. أى يثبت على الوضع الذى كان عليه.. فإذا أن يقيم التواءه، أو يلوى استقامته إعادة إلى النار، الماء... ثم إلى النار وهكذا.. حتى يفقد الحديد شكل حجمه.. أو يفقد الإنسان وعيه فلا يعرف له شكلاً أو أصلاً .. وفى النهاية ينسى الإنسان نفسه واسمه و القضية والتى جعلته يقبل دخول النار، ويحتمل الماء البارد.

ولقد حاول الروس مع جمال عبد الناصر، وأعادوه معى حتى دخلنا حرب الاستنزاف.